مَن يقول الناس إنّي أنا؟ هذا السؤالطرحه يسوع على تلاميذه منذ عشرين قرناً. وهو سؤال له من الخطورة ما جعله يتردّد على الألسنة إلى يومنا هذا. ولعلّه أعظم سؤال خرج على بساط التاريخ، لأنّه أدقّ وأخطر الآثار في المجموع البشريّ. وسيبقى هذا السؤال ما بقي الزمان، الفيصل الحاسم بين مختلف المذاهب والعقليّات والمدنيّات والحضارات. وعلى الإجابة عليه يتحدّد موقف كلّ إنسان تحديداً قاطعاً شاملاً.

من امتيازات المسيحيّة أنّها لا تفزع ولا تضطرب ممّا يُقال عن المسيح سيّدها، الذي شيّد صروحها على القوّة، وجعلها ثابتة بحيث لا تقوى أبواب الجحيم عليها. والمسيح نفسه شجّع الحرّيّة الفكريّة في أقصى مداها. ولم يُعرَف عنه أنّه أرغم أو أمر إنساناً أن يعتنق مبدأً، أو يفعل شيئاً لم يرده هذا الإنسان، أو يرغب فيه.

كما أنّ المسيحيّة، في كلّ تاريخها الطويل، لم تقبل إيماناً من الناس بشخص المسيح مبنيّاً على أسنّة الرماح، بل ما كان منطلقاً من اليقين الكامل المسيطر على القلب والفكر معاً. وانطلاقاً من هذا المبدأ نقول اليوم إنّنا لا نرغب في أن يؤمن الناس بلاهوت المسيح قسراً، أو يعتنقوا سلفاً رأياً ويتعصّبون له، ويبغضون أن يسمعوا رأياً خلافه. بل نبسط أمام الملأ شتّى الآراء، التي قيلت عن المسيح وسنناقش غثّها وسمينها، بكلّ رويّة، حتّى نصل أخيراً إلى الرأي الصحيح والفكر السديد :

1 اللاهوت الكامل : لعلّ من أغرب الآراء ما نادى به الغنوسيّون الذين أنكروا فكرة التجسّد بالمعنى المتداول بين جمهرة المسيحيّين. فهؤلاء أقرّوا لاهوت المسيح ولم يعترفوا بناسوته. وقد قالوا إنّ المسيح ظهر في هيئة إنسان، دون أن تكون له حقيقة جسد الإنسان. وأنّه لم يولد ولم يتألّم ولم يمت بالحقيقة، لأنّ جسده كان طيفاً أو خيالاً تراءى للناس. وقال فريق منهم إنّ جسد المسيح لم يكن ماديّاً كباقي أجساد الناس، ولكنّه كان جوهراً خاصّاً سماويّاً.

بيد أنّ هذا الرأي، لم يثبت أمام الحقيقة التي جاءت في الكلمة الموحى بها من الله. إذ نقرأ في 1 يوحنّا 4 :1-3 : أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لاَ تُصَدِّقُوا كُلَّ رُوحٍ، بَلِ امْتَحِنُوا الأَرْوَاحَ : هَلْ هِيَ مِنَ اللّهِ؟ لأَنَّ أَنْبِيَاءَ كَذَبَةً كَثِيرِينَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى الْعَالَمِ. بِهذَا تَعْرِفُونَ رُوحَ اللّهِ : كُلُّ رُوحٍ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ فَهُوَ مِنَ اللّهِ، وَكُلُّ رُوحٍ لاَ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ. وَهذَا هُوَ رُوحُ ضِدِّ الْمَسِيحِ الَّذِي سَمِعْتُمْ أَنَّهُ يَأْتِي، وَالْآنَ هُوَ فِي الْعَالَمِ.

2 الناسوت فقط : هذا الرأي لا يقل غرابة عن الرأي السابق، لأنّ أصحابه ينادون بناسوت المسيح دون لاهوته. إذ يقولون إنّ المسيح هو الإنسان الكامل، أي أنّه أعظم إنسان على الأرض. وتبعاً لذلك، يجب أن يُكرَم كأعظم قائد وأروع وأمجد بطل وشهيد.

ولعلّ أروع جواب يفنّد رأي هؤلاء المبدعين هو قول الدكتور ز. كونراد حين قال : إنّ هؤلاء يخطئون تماماً في ما انتهوا إليه من رأي، إذ لا يمكن أن نجعل المسيح حتّى قائداً أو بطلاً، بعد أن رفضوا ما أقرّه هو لنفسه. إذ لا يعدو في هذه الحال إلاّ أن يكون المسيح واحداً من اثنين : إمّا المخادع الأكبر، أو المخدوع الذي يحتاج إلى الرثاء. وحينئذٍ يصبح من السخف أن نعطيه أيّ مركز من الكرامة. والواقع أنّ المسيح إن لم يكن مستحقّاً للعبادة، فهو لا يستحقّ أدنى حظّ من الاحترام، لأنّه قد طلب لنفسه العبادة والإجلال، الأمر الذي لا يمكن أن يبرّره إن لم يكن إلهاً.

3 اتّحاد اللاهوت والناسوت في شخص المسيح : هذا هو الرأي الصحيح وقد عاش في الكنيسة، وكُتب له الانتصار والسيادة والعموميّة. ونادت وما زالت تنادي به القوانين الكنسيّة في كلّ العالم وكلّ الأجيال والعصور. وخلاصة هذا الرأي أنّ المسيح ذو طبيعتين كاملتين، إذ هو إله تامّ وإنسان تامّ.

ولربّ سائل يقول : ما هي الدوافع والأسباب التي حدت بالناس والمجامع الكنسيّة إلى الإيمان بلاهوت المسيح؟ وكيف أُتيح لهذه الدوافع أن ترقى وتتأصّل في الأذهان حتّى تبلغ مبلغ العقيدة التي يحيا الناس من أجلها ويستشهدون في سبيلها؟ لماذا يؤمن الناس بلاهوته؟ وما هي الأدلّة الدامغة القاطعة التي عليها يستندون، وفيهم من أعظم جبابرة الفكر البشريّ، وخلاصة عباقرة الناس في كلّ جيل وعصر؟

هذه الأسئلة لا بدّ من الإجابة عليها، قبل أن نؤمن، أو نقنع الناس بصحّة إيماننا بلاهوت المسيح وتجسّده. وهذا بلا ريب يقتضينا أن نقدّم الأدلّة القاطعة في هذا الموضوع :

أوّلاً: الدليل المُستمدّ من النبوّات: فالنصوص العديدة المتواترة، قد امتدّت من أوّل التاريخ، حتّى أسفار العهد القديم. وذلك خلال أربعة آلاف سنة. وهذه النصوص لا يمكن أن يُتّهَم المسيحيّون باصطناعها أو تأويلها، لأنّها كُتِبَت في سجلّات الوحي، قبل المسيحيّة. وقد كُتِب آخرها قبل تجسّد المسيح بما يقرب الأربع ماية سنة. ومجمل ما تصرّح به تلك النصوص أنّ شخصاً إلهيّاً سيأتي من السماء، لابساً الطبيعة البشريّة، ليكون مخلّصاً للعالَم. وأنّ ذلك الشخص يكون من نسل المرأة. ويأتي من ذرّيّة إبراهيم، وعلى وجه التحديد من سبط يهوذا وبيت داود، مولوداً من عذراء، بلا عيب ولا دنس. وأنّه يولد في بيت لحم، مدينة داود. وهو في الوقت ذاته الإله القدير السرمديّ الأبديّ. وهذا لا يمكن أن يتمّ إلاّ بالتجسّد واتّحاد اللاهوت بالناسوت. والنصوص التي تؤكّد هذه الحقيقة عديدة، لذلك أوردُ في ما يلي أظهرها وأوضحها:

من نبوّة إشعياء: لِأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابناً، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيباً، مُشِيراً، إِلَهاً قَدِيراً، أَباً أَبَدِيّاً، رَئِيسَ السَّلاَمِ إشعياء 9 :6.

ومن نبوّة إشعياء أيضاً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابناً وَتَدْعُو اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ إشعياء 7 :14. وقد فسّر الوحي كلمة عمّانوئيل بالقول الله معنا الإنجيل بحسب متّى 1 :23.

من المزامير: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ مزمور 110 :1. هذا التعبير عظيم جداً ولا يمكننا أن نجد له تفسيراً من غير الإيمان بالمخاطبة الأزليّة بين الآب والابن، والإيقان بأنّ الله هو المتكلّم بها.

من نبوّة ميخا: أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمَ أَفْرَاتَةَ، وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا، فَمِنْكِ يَخْرُجُ لِي الذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطاً عَلَى إِسْرَائِيل، وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ ميخا 5 :2.

ثانياً: الدليل المُستمدّ من أقوال المسيح: قال رجل الله الواعظ الشهير سبرجن: المسيح هو الحقيقة المركزيّة العظمى في تاريخ العالم، إذ يبدو إزاءه كلّ شيء إلى الأمام أو إلى الخلف وكلّ خطوط التاريخ تتلاقى عنده، وكلّ مواكب العناية تسير وفقاً لإرادته، وكلّ أغراض الحياة العظمى تتمّ في شخصه. فإذا أُضيف إلى هذا كلّه معجزاته وروعة أعماله الشاهدة على صدق كلّ حرف أو كلمة فاه بها، تعيّن التسليم بالدليل القطعيّ والحجّة الدامغة المُستمدّة من أقواله. وقد نسب المسيح إلى نفسه عشرين حقيقة على الأقلّ، لا يمكن أن تُنسَب، إلاّ لله وحده. ومن أهمّ هذه الحقائق:

الأزليّة: ولعلّ هذا من أخطر ما صرّح به، إذ قال لرجال الدين اليهود: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ الإنجيل بحسب يوحنّا 8 :58. وقوله أنا كائن هو ذات الاسم الذي أطلقه على نفسه، حين سأله موسى: بماذا أجيب إذ قال الشعب ما اسم الله الذي أرسلك إلينا؟ فقال له: أَهْيَهِ الذِي أَهْيَهْ خروج 3 :14-13. وهذا يفيد أنّ المسيح يرى في شخصه ذات الإله القديم الذي ظهر لموسى في العليّقة على جبل حوريب.

وكذلك جاء في الإنجيل بحسب يوحنّا 17 : 5 و24 إنّ المسيح قال في صلاته الشفاعيّة: وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ، لِأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ. فهذه الكلمات تؤكّد أزليّة المسيح وتقطع كلّ الألسنة، التي تزعم أنّ المسيح مُحدث.

المجيء من السماء: في حواره مع جماعة من اليهود، قال يسوع: أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ، أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ. أَنْتُمْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هذَا الْعَالَمِ الإنجيل يوحنّا 8 :23.

وفي حديثه مع الرئيس نيقوديموس، قال: وَلَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ الذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ابْنُ الإِنْسَانِ الذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ الإنجيل بحسب يوحنا 3 :13.

وقال في سفر الرؤيا: أَنَا الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ، الأَوَّلُ وَالآخِرُ رؤيا 22 :13.

ونلاحظ هنا أنّ يسوع يتحدّث ليس فقط عن مجيئه من السماء، بل أيضاً عن وجوده في السماء وهو على الأرض.

الحضور في كلّ مكان وزمان: قال: لِأَنَّهُ حَيْثُمَا اجْتَمَعَ اثْنَانِ أَوْ ثَلاَثَةٌ بِاسْمِي فَهُنَاكَ أَكُونُ فِي وَسَطِهِمْ الإنجيل بحسب

متّى 18 :20. وقال لتلاميذه بعد قيامته : فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ. وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ. وَهَأَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ الإنجيل بحسب متّى 28 :20-19.

القدرة الغير المحدودة : قال عند ظهوره ليوحنّا في جزيرة بطمس : أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ، يَقُولُ الرَّبُّ الْكَائِنُ وَالَّذِي كَانَ وَالَّذِي يَأْتِي، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رؤيا 1 :8.

3 الدليل المُستمدّ من ألقابه وأعماله الإلهيّة :

كونه خالقاً : كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ. فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ الإنجيل بحسب يوحنّا 1 :3 ، 4. فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشاً أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ كولوسي 1 :16. وَأُنِيرَ الْجَمِيعَ فِي مَا هُوَ شَرِكَةُ السِّرِّ الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ فِي اللَّهِ خَالِقِ الْجَمِيعِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أفسس 3 :9.

يقيم الأموات : فَلَمَّا اقْتَرَبَ إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ، إِذَا مَيْتٌ مَحْمُولٌ ابْنٌ وَحِيدٌ لأُمِّهِ، وَهِيَ أَرْمَلَةٌ وَمَعَهَا جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمَدِينَةِ. فَلَمَّا رَآهَا الرَّبُّ تَحَنَّنَ عَلَيْهَا وَقَالَ لَهَا : لاَ تَبْكِي. ثُمَّ تَقَدَّمَ وَلَمَسَ النَّعْشَ، فَوَقَفَ الْحَامِلُونَ. فَقَالَ : أَيُّهَا الشَّابُّ، لَكَ أَقُولُ قُمْ. فَجَلَسَ الْمَيْتُ وَابْتَدَأَ يَتَكَلَّمُ، فَدَفَعَهُ إِلَى أُمِّهِ الإنجيل بحسب لوقا 7 :15-12.

لِعَازَرُ، هَلُمَّ خَارِجاً فَخَرَجَ الْمَيْتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلاَهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ، وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيلٍ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ : حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ الإنجيل بحسب يوحنّا 11 :43 ، 44.

ديّان كلّ العالَم : وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ مَعَهُ، فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ. وَيَجْتَمِعُ أَمَامَهُ جَمِيعُ الشُّعُوبِ، فَيُمَيِّزُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَا يُمَيِّزُ الرَّاعِي الْخِرَافَ مِنَ الْجِدَاءِ الإنجيل بحسب متّى 25 :31 ، 32.

لِأَنَّ الآبَ لاَ يَدِينُ أَحَداً، بَلْ قَدْ أَعْطَى كُلَّ الدَّيْنُونَةِ لِلابْنِ الإنجيل بحسب يوحنّا 5 :22.

تحقّ له العبادة : لِكَيْ يُكْرِمَ الْجَمِيعُ الابْنَ كَمَا يُكْرِمُونَ الآبَ. مَنْ لاَ يُكْرِمُ الابْنَ لاَ يُكْرِمُ الآبَ الَّذِي أَرْسَلَهُ الإنجيل بحسب يوحنّا 5 :23.

وعبادة الابن مع الآب، كانت معروفة لدى رجال الله في العهد القديم فقد قال داود : اعْبُدُوا الرَّبَّ بِخَوْفٍ وَاهْتِفُوا بِرَعْدَةٍ. قَبِّلُوا الابْنَ لِئَلاَّ يَغْضَبَ فَتَبِيدُوا مِنَ الطَّرِيقِ مزمور 2 :11، 12.

يغفر الخطايا : كان اليهود يوقنون على الدوام أن لا أحد يملك غفران الخطايا إلاّ الله وحده. لهذا انذهلوا حين وقفوا أمام إحدى عجائب يسوع، الذي قال للمفلوج : يَا بُنَيَّ، مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ ولما ثارت أفكارهم على تصرفه قَالَ لَهُمْ : لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِهِ ذَا فِي قُلُوبِكُمْ؟ أَيُّمَا أَيْسَرُ : أَنْ يُقَالَ لِلْمَفْلُوجِ مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ، أَمْ أَنْ يُقَالَ : قُمْ وَاحْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ؟ وَلِكَنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لِابْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَاناً عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا قَالَ لِلْمَفْلُوجِ : لَكَ أَقُولُ قُمْ وَاحْمِلْ سَرِيرَكَ اذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ. فَقَامَ لِلْوَقْتِ وَحَمَلَ السَّرِيرَ وَخَرَجَ قُدَّامَ الْكُلِّ، حَتَّى بُهِتَ الْجَمِيعُ وَمَجَّدُوا اللَّهَ قَائِلِينَ : مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا قَطُّ! الإنجيل بحسب مرقس 2 :12-5.

يعطي الحياة الأبديّة : قال : خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي، وَأَنَا أَعْرِفُهَا فَتَتْبَعُنِي. وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الأَبَدِ الإنجيل بحسب يوحنّا 10 :28-27 ,

مساوٍ للآب : قال : أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ الإنجيل بحسب يوحنّا 10 :30 اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ، صَدِّقُونِي أَنِّي فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ، وَإِلاَّ فَصَدِّقُونِي لِسَبَبِ الأَعْمَالِ نَفْسِهَا الإنجيل بحسب يوحنّا 14 :9 و11.

قَبِل السجود والتعبُّد : ليس من شكّ في أنّ المسيح قَبِل السجود والتعبّد، ممّا لا يجوز لمخلوق على الإطلاق أن يقبلهما. وقد حدث هذا مع الرجل المولود أعمى. فلمّا سأله المسيح : أَتُؤْمِنُ بِابْنِ اللَّهِ؟ أَجَابَ : مَنْ هُوَ يَا سَيِّدُ لِأُومِنَ بِهِ؟ فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ : قَدْ رَأَيْتَهُ،

والَّذِي يَتَكَلَّمُ مَعَكَ هُوَ هُوَ. فَقَالَ: أُومِنُ يَا سَيِّدُ. وَسَجَدَ لَهُ الإنجيل بحسب يوحنّا 9 :38-35.

4 الدليل المُستمدّ من شهادة التلاميذ :

فشهادة التلاميذ، الذين عاينوا مجده قدّموا شهادة صريحة ناجزة لا شُبهة فيها، وهاكم بعضها على سبيل المثال، لا سبيل الحصر :

توما : فهذا التلميذ بعد القيامة حين لمس أثر المسامير في يديه ورجليه ووضع أصبعه على جنبه الذي طُعِن بالحربة، سجد له وقال : رَبِّي وَإِلهِي الإنجيل بحسب يوحنّا 20 :28.

يوحنّا : قال هذا التلميذ المُلهَم : وَنَحْنُ فِي الحَقِّ فِي ابنِهِ يَسُوعَ المَسِيحِ. هذَا هُوَ الإِلهُ الحَقُّ والحَيَاةُ الأَبَدِيَّة 1 يوحنّا 5 :20.

بولس : قال هذا الرسول في كرازته : وَمِنْهُمُ المَسِيحُ حَسَبَ الجَسَدِ، الْكَائِنُ عَلَى الكُلِّ إِلهاً مُبَارَكاً إِلَى الأَبَدِ رومية 9 :5.